

العبقرية

علم وأدب وفن

للاستاذ الحوماني

أو في طريق هذا التنفيذ ، نحس بشيء يشعركنا بصحة هذا العمل
أو فسادها . فما هو إذن ذلك الشيء الذي نشعر به في انفسنا غير
الارادة ؟

هل هو ذاتها ، فيصح كون الشيء ضدًا لنفسه ، أم غيرها ، فيثبت
لدينا ان الحى مركب من ارادة تفعل ، ونفس تفعل وتنفعل ، وشيء
آخر يشرف عليهما ، فيكون من الفعل والانفعال مثلاً أعلى هو هو ذلك
الجزء المنبعث من الحكمة المبدعة الاولى ؟

ثم على فرض وجود هذا الثالث ، فهل وجد مع النفس كالارادة
ثم نماه فعل الارادة في الخارج الى حد أصبح معه ذا سلطة عليها في
كثير من الاحيان ؟ أم هل تكون في النفس من تصادم الارادات
ضرورة بقاء المجموع ليضمن بقاء الفرد فيكون وجوده متأخراً ؟
وهذا إنما يتضح في أجماع العقول الناضجة مثلاً على استحسان أمر
له علاقة في بقاء المجموع واستقبال أمر آخر يتعلق بفساد المجتمع فيرى
هذا الاجماع المستمر في النفوس ملكة كبت الارادات والمحاكمة بينها
فتكون هذه الملكة أم هذا الموجود الثالث الذي نسميه فكرياً تارة ومعتقلاً
تارة أخرى ، ان صح تعاقب هذين اللفظين على معنى واحد كما سيمر بك
وعلى كلا الأمرين فانا نشعر ان في ذواتنا نفوساً تتدافع
وتتصادم في الحياة فتتحرك هذه القوالب بأمر من الارادة ، أو تتحرك
هي بارادة أخرى تتصادم وارادتها ، ذاتية كانت أو عرضية
ثم نشعر ان ضمن هذه النفوس ارادات تسيروا الى ما خلقت
له طبعاً (١) فهي تريدك على الطعام والشراب والمتعة ضرورة أن
هذه من مقومات حياتك

ونشعر بعد ذلك ان هنالك ما يستعرض هذه الأوامر الارادية
ثم يعرضها على الحياة فيصل بها إما الى صلاح فيستمر معها وأما
الى فساد فيصدها . ذلك هو الفكر قبل الحكم وهو يستعرض ويقيس ،
وهو نفسه العقل والهووى بعد الحكم متسلطاً على الارادة أو خاضعاً لها
ومن الصعب جدا تحديد أى الثلاثة في طريق تحديد الآخر منها
لشدة تمازجها والصلات المتأصلة بينها .

وربما كان أصدق تأويل لها هو أن النفس (٢) إنما هي الوسيلة
الاولى لتنفيذ أوامر الارادة ، والاعضاء هي الوسيلة الثانية . على
ان العقل هو الحاكم الاعلى المشرف على المجموع ، ينتهي الحكم
عنده سلباً أو ايجاباً

أمامك ماتحسه في الطبيعة كائناً ومكيناً من عظمة (١) وقفت
عقولنا دون حدها أو تصورها ، فكنا أمامها ولا نزال حائرين لا الى
الرشد كل الرشد فنتبين مصدرها ، ولا الى الجهل كل الجهل فصدف
عنها بطبعنا ، لان الحى لا يستطيع ان يفكر فيما وراء حياته ، فهو يريد
ان يقيس ما خفى عنه على ما بدا له ، ولعل ما يبذله هو خلاف الحقيقة
التي ينشدها من وراء ما يحس اذ يمكن ان يكون ما يترامى له اليوم
حقيقة ، ينكشف عنه الغد خيالا ، نتيجة كذب في حس أو خطأ في فكر
وربما كان ما يأتيه العقل في يقظته ، وهو قيد الحواس ، حلماً
يبدوله بعد تحرره من رق هذه الحياة الدنيا فتكون نسبة ما تأتيه
اليوم الى ما ندركه بعد الموت كنسبة ما تأتيه في الحلم الى ما ندركه
في اليقظة

فاذا ثبت لدينا ان في الاثر لاحالة جزءاً من روح المؤثر ثبت
بداهة ان في هذه النفس جزءاً من القوة المسيطرة على الكون أو
القائمة به ضرورة انها (أى النفس) إحدى جزئيات الداخلة في
مفهوم كليته

فالارادة كما يبدو لنا هي أولى خصائص النفس وقد كانت
الكنز الاول في خزائنها . ولكن هل هي الجزء الذي ينم على الفكرة
التي ابتدعتها في الكون ؟

قد تكون ذلك اذا ثبت لنا انها هي جاع ما في النفس من
جمال ، ولكن اني لها ان تكون كذلك وليست هي المثل الاعلى في
الانسان بله الحيوان بداهة ان مناطها في النفس حب البقاء والسيادة
والاستمتاع ؟ فالمرء يريد بطبعه ألا يتناول من الخارج الا ما يتصل
ببقائه وسيطرته وأستمتعاه .

فاذا كان ذلك مناطها ورأينا ان الصلاح كثيراً ما يكون في كبتها
وصدها عما تأتيه ، علمنا إذ ذاك ان المثل الاعلى في النفس الذي
يشير الى حكمة الصانع الاول هو غير الارادة

ثم اذا استعرضنا ماتأتيه هذه الارادة من عمل بعد تنفيذ

١- لا يلزم من قولنا طبعاً ان يكون ماتأمر به هو العلة لوجودها وحده ، فان
الارادة لما خلقت وكان ماتأمر به ناقصاً لان يكون علة تامة لها ، سلط عليها العقل فكان
ميلها مع تهذيبه هو علة لوجودها وذلك هو المثل الاعلى فتأمل
٢- النفس هنا هي الثانية المعبر عنها بنواة الحياة والتي مر بك تعريفها في صدر المقال

١- مساق الكلام هنا في معرض النداء على عظمة المكون عطفاً على ما سبق من
ان عظمة الصانع مقبسة على عظمة صنعه

فالإرادة في الطبع تأمر والعقل يوقع ، والنفس تنفذ مباشرة ، في الداخل أو بواسطة الاعضاء في الخارج . والنفس تنفرد دونها في النوم والجنون والاغماء ونحوها ، اذا صح ان لإرادة للمجنون بناء على ان الإرادة مناط امر النفس بما يعوزها طبعاً لاجتماعا ، والمجنون قد يفعل مايضره في الطبع بله الاجتماع . فالإرادة لا تحمل الحى انسانا كان أو حيوانا على أن يلقي بنفسه من شاطئ كما يفعله المجنون أحيانا ، من أجل ذلك تتحقق فيه النفس دون الإرادة والعقل .

وهكذا هي في النائم دونها ، اذا صح ان العقل الباطن الذى هو زعيم الاحلام ليس الا خيال العقل الظاهر الذى هو زعيم اليقظة وحقائقها كما اعتقد ، لأنه حقيقة مستقلة تكون من تجارب العقل الظاهر التى اخفق معها في حاضره أو ماضيه . ولكن العقل اليقظ المتخيل الذى يتزعج من الحقائق خيالا غريبا ينطبع خياله هذا في مرآة النفس فيفعل فعله منتزعا من أخيلة الحقائق في اليقظة أخيلة غريبة في النوم : واذا لم يكن العقل الباطن هو نفس العقل الظاهر (١) يبدو ضعيفا لضعف مركزه العصبى المتأثر بالنوم الى حد يتخلل معه نظامه ، فيكون تناهى العقل بالحدة الى درجة التخيل المبتدع . وتنأيه بالضعف الى درجة خرافات الاحلام . وكلاهما يتزعج من بين حقيقتين أو حقائق خيالا مزعجا في الحلم أو رائعا في اليقظة ، وكما يصيب في يقظته المغيبات أحيانا كذلك هو في حلمه . . . إذا لم يكن كذلك فهو خياله المنطبع على مرآة النفس يتضاءل لبعده عن الحقيقة فيظهر مبتراً منقطعاً .

وأما الإرادة والعقل فلزومان للنفس لا انفراد لهما دونها ، فحيثما وجدت الإرادة والعقل كانت النفس ولا عكس

ماذا وراء النفس بعد الإرادة ؟؟

يقولون ان هنالك عقلا وفكراً وخاطراً وضميراً ، ان هنالك ذهنًا وفطنة وذاتاً وذكاء ، ان هنالك شعورا وعاطفة وخيالا . وليست العبرة في تعداد هذه الخصائص في الانسان ولا في نسبتها اليه ، وانما العبرة في تحديد كل منها وبيان ما يميزها من غيرها من الخلال ، ولغموض هذه الفروق نرى الكثيرين يخلطون في الكلام عليها ، من أجل ذلك يحمل بنا قبل تحديدها أن تتمثل فيما يعرضها واضحة الحدود .

لنفرض أن لك صديقا حميما قد كثر غشيانك اياه في منزله الذى

(١) خذ الطفل مثالا لذلك فانه يعقل ولكن عقله ضعيف لضعف مركزه من الجسم ، من اجل ذلك تراه يتخيل الغريب من الصور كالحالم

يضمه واجل فتاة قد اقترن بها ، وفي كل زيارة ينمو في نفسك حب هذه الفتاة ، لما ترسل اليك من نظراتها الساحرة ويملاً نفسك من ورائها جمال نفس يفيض على فيها رقة وابتساما ، والى جانب هذا الحب تنمو في نفسك صداقة الزوج لما يغمر بك به من فضل واحسان الى رقة طبع ودماثة خلق ، وليس ما تربي في نفسك من ولاء اخيك وحب فتاته بأقل مما يحمل الزوج لك من ولاء . وتشعر به الزوجة نحوك من غرام

تبادلتما هذا الحب وبدا لك جليا واضحا هيامها بك وشوقها لك من عينيها الشاخصتين اليك ونظرها المسبغ عليك ، ثم بدا لك أن تزور صديقك في وقت كنت مضطراً معه الى أن تراه ، وكان هو مضطراً فيه الى أن يغادر مكانه ، فكنت والزوجة خيلين في منزل واحد وعلى مقعد واحد يناجى كل منكبا الآخر بما يجول في نفسه ، فيبدو جليا على عينه رقة وفي حديثه تقطعا ، وفي حركاته اضطرابا . ثم امتد الأمر بك الى أن هم كلاكما بصاحبه فكانت هي أشد ثورة منك ، فأول ما تتحرك فيك الإرادة والرغبة ؛ ولكنك قبل أن تنفذها أو تبشر تنفيذها تلحظ ما يحف بهذا العمل الذى اقدمت عليه بدافع قوة الإرادة الحيوية ، تلحظ ما يحف بهذا العمل - وهو اشباع نفسك من جمالها - من أمور خارجية منها ما يدفعك اليه ومنها ما يردعك عنه ، فمن الاول التمتع بالجمال المماثل أمامك الذى هو في متناول يدك ، ثم أمان العاقبة وشيوع الامر المفضى بك الى العار ، ثم اشباع نفسها من جمالك لتأمن مكرها فيما اذا هي اخفقت منك

ومن الثانى - خيانة صديقك البار بك ، والتعدي على جمال ليس لك فيه حق ، وتشويه هذا الجمال بما تخفيه من دخيل داء لا بد من ملاحظتك هذه الامور واستعراضها جملة أو متفرقة في زمن واحد أو ازمة مختلفة تتخللها فترات قصيرة . فأى العوامل كان أقوى أثرا في نفسك لقوته في الخارج كانت له السيطرة عليك داخلها فكان قائدا لك .

فاما أن يكون الاول فيجذبك اليها وتلبث زمنا ما تعبت بجمالها والشهوات تقيمك وتقعديك بين يديها وإما أن يكون الثانى فيصدك عنها وتخرج ناصع الجبين مطمئنا الى راحة الوجدان .

تجرى هذه المحاكاة بناء على سلامته بذلك واستقامة نظام الحياة فيك وإلا فلضعف الاعصاب . وهي بعض مراكز هذه الخصائص تأثير قوى في صرف الإرادة وتعصيدها . « يتبع »